4. الدراسات الثقافية بين النظرية الماركسية واليسار السياسي

تستدعي الدراسات الثقافية التساؤل حول طبيعتها الفكرية هل تمثل امتدادا للمشروع الماركسي أم تحولا ثقافيا لليسار السياسي بعيدا عن الاقتصاد والسياسة المباشرة.

انبثقت الدراسات الثقافية من المدرسة الماركسية غير أنها لم تكن من مناصري الأفكار الكلاسيكية لماركس بل كانت متأثرة أكثر بأفكار المدرسة الماركسية الجديدة التي تنتمي الى الفكر اليساري.

***الماركسية التقليدية:**

تركز الماركسية التقليدية على الاقتصاد وتعطي قوة للحتمية الاقتصادية، اذ ترى أن الاقتصاد يشكل أساس المجتمع.

تتجه الماركسية الكلاسيكية الى التأكيد على الصراع الطبقي ودور الطبقة العاملة، والقوة التحكمية للعلاقات الاقتصادية. وترى أن الاقتصاد يمثل البنية التحتية للمجتمع وهو من يتحكم في البنية الفوقية التي تمثل الثقافة والأيديولوجيا. اذ ترى أن الثقافة والتعليم والاعلام تنتمي الى البينة الفوقية وهي مكرسة لخدمة مصالح الطبقة المهيمنة، فالثقافة والاعلام مجرد انعكاس للاقتصاد.

تعتبر الماركسية الكلاسيكية الأيديولوجيا أداة للسيطرة، والثقافة ليست محايدة، وانما تستخدم لتكريس القيم السائدة وتخفي علاقات الاستغلال.

***اليسار السياسي والماركسية الجديدة:**

تنتمي الماركسية الجديدة الى الفكر اليساري الذي يركز أساسا على تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة وتقليص الفوارق بين الطبقات، خاصة من خلال تدخل الدولة أو إعادة توزيع الثروة. فالدولة تلعب دورا في حماية المجتمع عبر توفير التعليم والصحة وحماية الفئات الهشة، وتنظيم الاقتصاد.

انتقدت الماركسية الجديدة العديد من الأفكار الماركسية التقليدية المتشددة، وحاولت مراجعتها وتعديلها، حيث اعادت تعريف الصراع وجعلته ثقافي –رمزي. فالماركسية الجديدة ابتعدت عن التحليل المركز على الاقتصاد فقط ورفضت الحتمية الاقتصادية الصارمة. وترى أن الثقافة لم تعد مجرد انعكاس للاقتصاد بل أصبحت موقعا لإنتاج المعنى والصراع. فالسيطرة لا تتم عبر الاقتصاد فقط بل عبر الثقافة والاعلام.

اهتمت الماركسية الجديدة بدراسة الهيمنة الثقافية والخطاب والاعلام والوعي. وترى أن الثقافة مرتبطة بحركية الصراع داخل المجتمع، فهي –أي الثقافة– كبنية أو ممارسة متجددة باستمرار، تبقى أحد أهم أدوات إدارة الصراعات متعددة الاتجاهات داخل المجتمعات المعاصرة.

يعد أنطونيو غرامشي من أبرز رواد الماركسية الجديدة، وقد طور مفهوم الهيمنة الثقافية، وحاول تبيان طبيعة الارتباط بين فعل الهيمنة ومجال الثقافة.

يرى غرامشي أن الثقافة تتحول الى مجال للصراع الرمزي تمارس فيه الطبقات المهيمنة سيطرتها على القيم والمعاني عبر وسائل ومؤسسات كالإعلام، التعليم، والثقافة اليومية، وهو ما يولد القبول الطوعي للسيطرة.

غير أن المقاومة تكون مقابل للهيمنة، فالإعلام قد يفرض رؤية معينة لكن الجمهور يمكن أن يقبلها، يفاوضها أو يرفضها.

تأثرا بفكر غرامشي اتجهت الدراسات الثقافية نحو بحث وتفسير كيف تستخدم وسائل الاعلام في الترويج للأفكار السائدة وفرض الهيمنة الثقافية.

الى جانب غرامشي تأثرت الدراسات الثقافية بأفكار لويس ألتوسير الذي يعد كذلك من رواد الاتجاه الماركسي الجديد، وهو الذي اهتم بالأيديولوجيا وأدواتها، اذ اعتبر المدرسة والاعلام والدين أدوات أيديولوجية تستخدم لإعادة انتاج القيم السائدة. ومن ثم فالثقافة تستخدم من أجل التغلب على الصراع الأيديولوجي داخل المجتمع.

ويرى ألتوسير أن السياسة موجودة في كل مكان فالصور، الانماط، القواعد، القصص الإعلامية، أشكال الخطاب، اللغة العامية، النكت، ...الخ تنقل قيما سياسية.

أما الهوية الفردية فهي نفسها وظيفة أيديولوجية، فالأفراد يكسبون هوية اجتماعية من خلال التماثل مع نماذج للذات يتم اعدادها أيديولوجيا. يتعرف الناس على أنفسهم من خلال الصور التي تأتيهم من وسائل الاعلام. وما يجذب الافراد الى عملية التماثل هو رغبتهم في التلاحم والكلية.

وقد انتقدت الماركسية الجديدة عموما الرأسمالية الثقافية واعتبرت ان وسائل الاعلام والاعلانات والصناعات الثقافية تعيد انتاج علاقات القوة الطبقية.

تأثرت الدراسات الثقافية بالأفكار الماركسية الجديدة حول الهيمنة والايديولوجيا واستغلت الأدوات التي طرحتها في تحليل الاعلام كفضاء للصراع عبر تحليل الخطاب الإعلامي وكشف تحيزاته، وفهم طرق صناعة الرأي العام، وتحليل تلقي الجمهور للمنتجات الثقافية والثقافة اليومية.

خلال السبعينيات وسعت الدراسات الثقافية مواضيعها وحولت تركيزها نحو المواضيع المتعلقة بالهوية، العرق، الجندر، الشباب، تمثيل المرأة، الثقافة الشعبية، تمثيل الأقليات، خطاب الاعلام، والعدالة الرمزية بدلا من التركيز على الطبقة العاملة والصراع الاقتصادي.